ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

الظاهرة الكولونيالية ومناهضتها في فكر البشير الإبراهيمي
من خلال مآثره الأدبية والصحفية

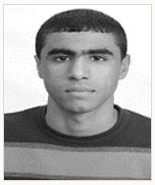

عبد القادر عزام عوادي
أستاذ مساعد
جامعة الشهيد حمة لخضر
الوادي – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

تُعَدّ شخصية الشيخ محمد البشير الإبراهيمي من أهم الشخصيات الزعمات الدينية والإصلاحية التي شهدها تاريخ الجزائر في العصر الحديث، ولقد عاصر الشيخ الإبراهيمي رفقة خليله وصديقه الشيخ عبد الحميد بن باديس فترة هامة من تاريخ الجزائر، وهي الفترة الاستعمارية وما تخللها من أوضاع مست المجتمع الجزائري في كافة المجالات، وحاول الشيخ الإبراهيمي رفقة الشيخ عبد الحميد بن باديس وتحت غطاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تأسست في يوم ٥ مايو ١٩٣١م، أن يقوموا بإصلاحات داخل المجتمع من خلال السياسة التعلمية والصحفية والتهذيبية التي مست مختلف طوائف المجتمع، وكان من أبرز ما دعا إليه الشيخ الإبراهيمي من خلال كتاباته وخطاباته ومراسلاته هو بغضه للاستعمار بكافة أشكاله ووجوهه المختلفة، وكتب الكثير في هذا الضمار مندّدًا بالاستعمار في كل الأوطان العربية والاسلامية، ولعل من أبرزها القضية الفلسطينية التي كانت همه رفقة القضية الجزائرية، وأيضًا من خلال عضويته في لجنة تحرير المغرب العربي.

بيانات الدراسة:
تاريخ استلام البحث: ١٠ نوفمبر ٢٠١٥
تاريخ قبول النشر: ٠٤ مارس ٢٠١٦

كلمات مفتاحية:
جمعية العلماء، الاستعمار الفرنسي، المغرب العربي، الثورة التحريرية

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0051257

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
عبد القادر عزام عوداي. "الظاهرة الكولونيالية ومناهضتها في فكر البشير الإبراهيمي من خلال مآثره الادبية والصحفية".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد التاسع والثلاثين؛ مارس ٢٠١٨. ص٩١ – ١٠٢.

مُقَدِّمَةٌ

منذ أن وطئت أقدام المستعمر الغاشم أرض الجزائر الطاهرة، بدأت المقاومات الشعبية التي واجهت هذا المستدمر، ولم يرضى هذا الشعب الأبي أبدًا بالاحتلال والذل والمهانة، وقدم النفس فداءً للوطن، ولقد تعددت أشكال وأنواع مواجهة الاستعمار الفرنسي، فكانت المواجهة العسكرية غير المتكافئة هي الأولى من خلال المقاومات الشعبية، والعمل السياسي الذي ظهر فيما بعد من خلال الاحزاب والشخصيات السياسية، وأيضًا من أبرز المواجهات هي المواجهة الفكرية والإصلاحية والتي تصدت لها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من خلال توعية الشعب الجزائري، وأيضًا إصدار الجرائد والمجلات، وإنشاء المدارس وإرسال البعثات العلمية وكل ذلك من أجل إيقاظ الضمير الجزائري الذي تدنس بمخلفات الاستعمار الفرنسي الجاثم عليه ما يزيد عن قرن من الزمن.

ومن أبرز الشخصيات التي قادت في هذا المضمار شخصية محمد البشير الإبراهيمي "عليه رحمة الله"، الذي كان أسدًا شجاعًا في مواجهة الاستعمار بكلمته، وكان قلمًا دفاقًا بمقالاته التي عرت سياسات فرنسا الاستدمارية، وكان لسانًا فصيحًا من أجل إعادة الهيبة للغة العربية، وكان إمامًا مصلحًا يدافع عن حياض الإسلام والعقيدة الصحيحة. ولقد كان الإبراهيمي "عليه رحمة الله" من أشد المعارضين للاستعمار الفرنسي بقلمه، وأيضًا بفكره النير المستنير، فكان شعلة أضاءت عقول الجزائريين، وأنار افئدة الشباب الجزائري، فكانت مقالاته بمثابة اللقاح والمضاد الحيوي الذي اكتسبه الشباب الجزائري في تلك الفترة، وبذلك تولدت لديه روح جديدة هي روح المقاومة لكل ما هو مخالف

للشريعة الإسلامية وللشخصية العربية الجزائرية، فحارب العقائد الفاسدة، والتزم باللغة العربية، واللباس الإسلامي العربي، والعادات والتقاليد الجزائرية الأصيلة، وبذلك تكونت الشخصية العربية الإسلامية التي حاول الاستعمار الفرنسي طمسها والقضاء عليها طوال تواجده في الجزائر.

لذلك سوف تكون هذه الدراسة حول فكر الإبراهيمي ونظرته للظاهرة الكولونيالية الفرنسية، وأيضًا مناهضته ومحاربته لهذا التواجد الغاشم بفكره وقلمه وعمله، وسوف تكون الإشكالية تتمحور في التساؤلات التالية: كيف كانت نظرة البشير الإبراهيمي للظاهرة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر؟ وكيف واجهها البشير الإبراهيمي؟ وكل ذلك من خلال تراث شيخنا الأدبي والصحفي.

١-لمحة عن البشير الإبراهيمي وجهوده الإصلاحية داخل جمعية العلماء

ولد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، في يوم الخميس ١٤ شوال سنة ١٣٦٠هـ الموافق ليوم ١٤ جوان سنة ١٨٨٩م، في قرية رأس الوادي في بلدة (سطيف)، واسمه الكامل هو محمد البشير بن محمد السعدي بن عمر بن محمد السعدي بن عبد الله بن عمر الإبراهيمي،[١] وينتسب إلى قبيلة (ريغه)، الشهيرة بأولاد إبراهيم بن حيى بن مساهل. أخذ العلم عن الشيخ عبد العزيز الوزير، والشيخ محمود الشنقيطي، والشيخ حمدان الونيلي، والشيخ الطيب بن مبارك الزواوي وغيرهم.[٢]

هاجر إلى الحجاز قبل الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١١م رفقة عائلته، وعند مروره على مصر استقر مدة ثلاثة أشهر هناك في مدينة القاهرة ينهل من علماءها وشيوخها خاصة علماء الازهر، وزار خلال تواجده هناك كل من الشاعرين حافظ إبراهيم وأحمد شوقي، والعالم القرآني الشيخ رشيد رضا، والعديد من العلماء الاخرين، وأقام في المدينة المنورة إلى غاية سنة ١٩١٧م، حيث ارتحل بعدها رفقة والده الى دمق ومارس التعليم في مدارسها الثانوية، ونجد أنه سنة ١٩١٣م اجتمع مع الشيخ عبد الحميد بن باديس واستعرضا حالة الجزائر السياسية والثقافية والعلمية والاصلاحية، وتناقشا مطولاً في سبيل الخروج من هذه الأزمة التي أصابت البلاد والعباد في الجزائر.[٣] وعاد إلى الجزائر في سنة ١٩٢٠م، وهناك كانت قد بدأت جهود الشيخ عبد الحميد بن باديس الاصلاحية، ولكنها لم تصل بعد إلى مرحلة الذروة والقوة، وبدأ الشيخ البشير الإبراهيمي أيضًا في منطقته بسطيف نشر بذور الحركة الاصلاحية والتعلمية هناك من خلال الحث على التعليم ومحاربة الجمود الفكري وإنشاء المدارس والمساجد الحرة، ولكن أعماله من سنة وصوله إلى الجزائر وإلى غاية سنة ١٩٢٩ لم تكن ذات ظهور وأثر بارز.

وبعد الاحتفالية المئوية التي قامت بها السلطات الفرنسية في ذكرى احتلال الجزائر، جاء الرد الوطني والرد من طرف العلماء والمصلحين والوطنيين في الجزائر حيث وفي يوم ٥ مايو ١٩٣١ تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، من صفوة العلماء في تلك الفترة، فكانت أحسن رد عن تلك الاحتفالات والادعاءات الكاذبة بأن الجزائر أصبحت قطعة فرنسية، فعين الشيخ الإبراهيمي، نائبًا للرئيس عبد الحميد بن باديس، وبدأ العمل الجاد من أجل إصلاح المجتمع الجزائري. وهكذا كان نشاطه دؤوبًا في مجال الحركة الاصلاحية الجزائرية، فكان صاحب القلم السيال بتلك المقالات المنشورة في جرائد الجمعية، وكان يدعوا فيها الشعب الجزائري والشباب الجزائري بصفة خاصة إلى تحمل المسؤولية والى رفع الهمم، من أجل هذه الحركة الاصلاحية التي تقودها جمعية العلماء المسلمين، وكان أيضًا مدافعًا عن الدين واللغة والهوية ومحاربًا عنها في تلك المقالات.

وكان الشيخ البشير الإبراهيمي مكونًا للرجال، فلقد خرج من مدارسه ومن حلقاته العلمية العشرات من الأعلام والشخصيات العلمية والفكرية والاصلاحية في الجزائر، الذين حملوا بعد مشعل الإسلام والعربية والوطنية. وفي مدينة تلمسان لا تنسى ثمراته وجهوده، فلقد كان باعثًا للنهضة العلمية والإصلاحية في مدينة تلمسان في وقت لم يجرؤ فيه الكثير على مواجهة فرنسا فكريًا أو تعليميًا، ولكن الشيخ وفي سنة ١٩٣٧ أنشأ دار الحديث في تلمسان بجهود المخلصين ودعم الخيرين من مدينة تلمسان الطيبة، ولم تمر فترة حتى أنشأت أول مدرسة للفتيات بالقرب من دار الحديث مدرسة عائشة، هكذا كان ينير درب الجزائريين وخاصةً الشباب الجزائري الذي كان يرى فيه كل الأماني وواضعًا فيه كل الآمال، فسخر جهده ووقته وماله وقلمه وكل ما يملك من أجله.

وفي سنة ١٩٤٠م، قامت السلطات الفرنسية باعتقال الشيخ البشير الإبراهيمي وإبعاده إلى منطقة آفلوا، وذلك بسبب عدم دعمه للاستعمار الفرنسي ضد ألمانيا وأطلق سبيله في أوائل سنة ١٩٤٣م، والمحزن أنه بعد إبعاده بفترة وجيزة توفى الله الشيخ عبد الحميد بن باديس، فكان هذا الخبر فاجعًا وصاعقًا على الشيخ البشير الإبراهيمي، فلقد فقد أخيه وخليله، وصديق دربه. وبعد إطلاق سراحه في سنة ١٩٤٣م، عين الشيخ البشير الإبراهيمي رئيسًا لجمعية العلماء المسلمين وكانت فترة رئاسته من أبرز الفترات التي مرت بها الحركة العلمية والإصلاحية في الجزائر، وشهدت الجمعية على عهده نموًا كبير، فلقد أنشأ في عام واحد ثلاثًا وسبعين مدرسة وكتّابًا؛ وكان هدفه نشر اللغة العربية، وجعل ذلك عن طريق تحفيظ القرآن الكريم، إبعادًا لتدخل سلطات الاحتلال الفرنسي؛ وقد تسابق الجزائريون في بناء المدارس، فزادت على أربعمائة مدرسة.

وفي سنة ١٩٤٥م زُجّ به في السجن العسكري، ولقي تعذيبًا شديدًا من الفرنسيين، ثم أُفرج عنه يوم ١٠ مارس سنة ١٩٤٦م بعد أن قضى قرابة عشرة أشهر في السجن العسكري بقسنطينة، فقام بجولات في أنحاء الجزائر لتجديد النشاط في إنشاء المدارس والأندية والكتاتيب، وفي ٧ مارس ١٩٥٢م خرج من الجزائر إلى الشرق في رحلة عملية منظمة، وأقام في القاهرة أسبوعًا ثم سافر إلى باكستان فأقام بها قرابة ثلاثة أشهر متجولاً في مدنها الكبرى وألقى سبعين محاضرة في الدين والتاريخ والاجتماع، ثم رحل الى العراق فطاف بمختلف مدنها والقى فيها المحاضرات العديدة،

دراسات

ثم رجل الى الحجاز في موسم الحج لسنة ١٩٥٢م، ثم رجع إلى القاهرة يوم ٢٤ اكتوبر ١٩٥٢م، وأخذ يتردد منها على العراق وسوريا والأردن والقدس يلقي الخطب والمحاضرات، وبهذا كسب الشيخ الإبراهيمي سمعة كبيرة وأصبح أحد الشخصيات العلمية المرموقة في المشرق وذا الصيت الواسع،[٤] وحين اندلعت الثورة الجزائرية سنة ١٩٥٤م قام برحلات إلى الهند وغيرها لإمداد الثورة بالمال والسلاح.

وقام بكل جهده في دعم ثورة التحرير سواء في القاهرة أو من دول عربية وإسلامية أخرى، وكذلك من خلال الرسائل والبرقيات التي كان يوجهها للزعماء والرؤساء في مختلف أصقاع العالم. فكان بحد زعيمًا مصلحًا مجاهدًا، وعالمًا عاملاً مخلصًا، فحارب الاستعمار الفرنسي بقلمه وفكره ولسانه، وحاربه بنشاطه السياسي والدبلوماسي الذي لم يكن له نظير في فترة تواجده خارج الجزائر، فكان رحالة من أجل قضية وطنه وشعبه.

١/١- أثاره ومؤلفاته:

كان من أعضاء المجامع العلمية العربية في دمشق والقاهرة وبغداد، وله شعر إسلامي يعتبر ملحمة في تاريخ الإسلام، حيث يبلغ حوالي ستة وثلاثين ألف بيت، كان ينشره في مجلة (البصائر) التي كان رئيس تحريرها؛ وهو من خطباء الارتجال المفوّهين. وقد طُبعت مقالاته في كتاب (عيون البصائر)، كما أن له كتبًا أخرى منها: (شعب الإيمان) و(الثلاثة) و(حكمة مشروعية الزكاة في الإسلام) و(الاطراد والشذوذ في العربية) و(التسمية بالمصدر) و(أسرار الضمائر العربية) و(الصفات التي جاءت على وزن فَعَل) و(كاهن أوراس) و(نظام العربية في موازين كلماتها) و(رسالة في ترجيح أن الأصل في الكلمات العربية ثلاثة أحرف لا اثنان) و(نشر الطي من أعمال عبد الحي) و(ملحمة شعرية) و(رسالة في مخارج الحروف وصفاتها بين العربية الفصيحة والعامية) و(الأخلاق والفضائل) وغيرها كثير جدًا.

قال الشيخ ابن باديس عنه: عجبت لشعب أنجب مثل الشيخ الإبراهيمي، أن يضلَّ في دين، أو يخزى في دنيا، أو يذلَّ لاستعمار.

١/٢- وفاته:

بعد عودته الى الجزائر، وبعد كل الاحداث السياسية التي شهدتها الجزائر عشية الاستقلال، استقل الشيخ الإبراهيمي عن كل تلك القلاقل والمعارك التي كانت بين الاخوة الاشقاء في السلاح، وما بيان أفريل المعروف إلا دليلاً واضحًا على حزن الشيخ الإبراهيمي وحرقة قلبه على هذا الوطن الجريح، الذي ما فتئ يلملم جراحه حتى أدخله هؤلاء في جراح ونزيف آخر. ووضع في الاقامة الجبرية، وبقي فيها إلى أن توفاه الله يوم ٢٠ مايو ١٩٦٥م، وهو الذي قال يوم ما أثناء طوافه في ربوع البلدان الاسلامية من أجل قضية وطنه "... خطت الاقدار في صحيفتي ان افتح عيني عليك وانت موثقة، فهل في غيب الاقدار أن أغمض عيني فيك وانت مطلقة؟ وكتبت الاقدار علي أن لا املك من أرضك شبرا، فهل تكتب لي أن احوز في ثراك قبرا".[٥]

٢-الظاهرة الاستعمارية في فكر البشير الإبراهيمي

ككل الجزائريين، وككل المصلحين العاملين، عاش العلامة محمد البشير الإبراهيمي في ظل الاستعمار الفرنسي الغاشم، فرأى بأم عينيه ذلك الظلم والتعسف الذي كان يعانيه الشعب الجزائري، والتفرقة وقوانين الظلم والجور، لذلك كان ينظر الى هذا المغتصب بعين البغض والكراهية الكبيرة، ومن أجل ذلك سعى رفقة خليله عبد الحميد بن باديس ونخبة من العلماء المصلحين الجزائريين إلى تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في يوم ٥ ماي ١٩٣١م، وكانت جمعية دينية اصلاحية تهذيبية هدفها الأول هو إيقاظ ضمير الشعب الجزائري ومحاولة نشر العلم والدين القويم ومحاربة الجمود الفكري والشعوذة التي كانت منتشرة في تلك الفترة بفعل بعض رجالات الطرق الصوفية، وأيضًا بدعم الاستعمار من أجل أن يطيل نوم هذا الشعب وتجهيله.

فنجد في افتتاحية جريدة البصائر في عددها الأول من سنة ١٩٣٥م، وهي افتتاحية بقلم العلامة عبد الحميد بن باديس فيقول فيها «وبعد فما ينتم علينا الناقمون؟ اينقمون علينا تأسيس جمعية دينية إسلامية تهذيبية تعين فرنسا على تهذيب الشعب وترقيته ورفع مستواه إلى الدرجة اللائقة بسمعة فرنسا ومدنيتها وتربيتها للشعوب وتثقيفها فاذا كان هذا ما ينقمون علينا فقدا أساءوا إلى فرنسا قبل أن يسيئوا إلينا... انظروا شيئًا ما إلى ما حواليكم من الامم وتأملوا فيما تنادي به الشعوب وما تعلنه من مطالب فإنكم اذا نظرتم وتأملتم حمدتم لهذه الجزائر الفتية نهضتها الهادئة وتمسكها المتين بفرنسا وارتباطها القوي بمبادئها وعدها نفسها جزءًا منها وقصرها لطلبها منها على أن تعطى جميع حقوقها كما قامت بجميع واجباتها وأن لا تقدمها في أيام السلم من قد لا يساويها في أيام الحرب».[٦]

إن القاري لهذه السطور ليشعر في الوهلة الأولى أنها لا تصدر من طرف عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ويظن أنها لأحد الجزائريين الداعين لربط الألفة مع فرنسا، ولكن الناظر المدقق والعارف بخبايا تلك الفترة لسوف يدرك تمام الادراك معاني الشيخ عبد الحميد بن باديس في انتهاجه هذا الاسلوب في كتابة افتتاحية البصائر، فلقد كان يريد المداهنة والتخفي خلف السطور من أجل أن يطيل أنفاس جريدته الإصلاحية، وأيضًا جمعيته التهذيبية وكل ذلك من أجل هذا الشعب والوطن، وكان هذا مسلك جل العلماء في تلك الجمعية المباركة.

ونرجع إلى أستاذنا محمد البشير الإبراهيمي ونظرته للمستعمر فيقول فيه ما يلي: «كلمة الاستعمار إحدى الكلمات المظلومة باستعمالها في ضد معناها الوضعي، مع خلوها من النكتة التي يلمحها العرب في مثل هذا النوع من الاستعمال، حين سموا البيداء المهلكة مفازة، واللديغ سليما، والغادية قافلة، والنكتة الغالبة في تسمية الشيء باسم ضده هي التفاؤل أو

التفريج أو حسن الأدب في الخطاب أو عدم صك الاسماع بسوء القول. وكلمة الاستعمار آتية من "عمر" ضد "خرب" مع أن التفسير العملي لهذه الكلمة هو الخراب والتخريب، وليس فيها شيء من معنى الإعمار والتعمير، ولا أدري أي صارف صرف الجيل الذي مضى قبلنا من الكتاب والمترجمين عن ترجمة هذه الكلمة من لغاتها الأصلية بمعناها الحقيقي وهو التخريب والظلم والتسلط والقهر... والأسماء القبيحة لا تستر المعميات القبيحة إلا عند الصبيان وأشباه الصبيان من أمثالنا وأمثال الجيل السابق من أسلافنا الذي اقروا هذا الاستعمال».[٧]

هذه نظرة البشير الإبراهيمي بين مصطلح الاستعمار وواقع ما يسمى الاستعمار وهو في حقيقته استخراب واستدمار واستحمار، فهكذا كان يدعوا الى التفريق بين ما تدعوا اليه اللغة والمصطلحات وما ينظر اليه في ارض الواقع من ان هذه الظاهرة الغشومة الظلومة محال ان تكون ايجابية ومقصدها التعمير، وانما هي الدمار والقتل والتشريد، وكل معاني البؤس والشقاء على الشعوب.

ولقد وصف الشيخ الإبراهيمي الخبث الانكليزي والاستعمار البريطاني البغيض بكلمات دقيقة ومعبرة فقال « ... ولكنهم مع الاسف جاءوه بالكفن وهو في ثياب العرس، وعرضوا النوائح في مواكب الفرح، وارادوا ان يعالجوه من الفقر فعالجوه بالفقر ومعه الذل، وان يداووه فداووه من الحمى بالطاعون، وقيدوه بقيد من حديد مع مستعمر عتيد وجبار عنيد ولدود عرف بنقض العهود وتجاوز الحدود، مع مفترس مازالت أظافره حمراء من دماء المسلمين والعرب، ومازال واضعا قدميه النجستين على البقاع الطاهرة من أرضنا "القناة" من مصر- وفي "الحبانية" من العراق وفي "المفرق" من الاردن، ومازال ممتدا كالسرطان على الشواطئ الشرقية لجزيرة العرب... كل هذه الأوصاف تعبير لجنس اسمه الانكليز»[٨]

وكان الشيخ الإبراهيمي لا يرى في الاستعمار إلا الشؤم والدمار والبؤس، ففي مقاله الصادر بمناسبة الذكرى الثالثة لمجازر ٨ ماي ١٩٤٥ كتب فيه «... أما الاستعمار فأيامه كلها نحسات، بل دهره، كله يوم نحس مستمر، محيت الفواصل بين أيامه ولياليه، فكلها سود حوالك، يطير طائر النحس منها فلا يقع إلا على أمم آمنة مطمئنة...، لك الويل أيها الاستعمار، أهذا جزاء من استنجدته في ساعة العسرة فأنجدك، واستصرخته حين أيقنت بالعدم فأوجدك؟ أهذا جزاء من كان يسهر وأبناؤك نيام...»[٩].

ونجده أيضًا الشيخ الإبراهيمي يدرك حجم خطورة الاستعمار على المستوى الاجتماعي والثقافي للمجتمع، وبين أن الاستعمار ليس فقط هو ذلك التدخل العسكري المباشر في احتلال الشعوب، وانما خطره أكبر من ذلك، فهو كالورم الخبيث الذي يصيب الجسم ويسري في أجزاءه حتى يقضى عليه فيقول «يبيح الاستعمار الفرنسي فتح المقامر لتبديد أموال المسلمين، وفتح المخامر لإفساد عقولهم وأبدانهم، وفتح المواخير لإفساد مجتمعهم، ولا يبيح فتح مدرسة عربية تحيي لغتهم أو فتح مدرسة دينية تحفظ عليهم دينهم».[١٠] هكذا كان ينظر الشيخ الإبراهيمي للاستعمار، وكانت تنظر جمعية العلماء المسلمين بصفة عامة إلى هذا المستخرب الظالم، الذي كان من أول أنشطته هو محو الشخصية العربية والاسلامية للجزائريين، ومحاولة طمس الشخصية الجزائرية، من خلال سياسات التجهيل، وعمليات التمسيح التي كان يعطي لها كل الجهود ويسخر لها الأموال والدعم المادي والمعنوي، لأنه يعلم أن بقضائه على هذا الدين سوف يستقر في الجزائر باطمئنان وأمان. فلقد وصف هذا الاستعمار بكل صفات السوء، ونعته بجميع نعوت الظلم والجور، فكان قوالاً للحق لا يرده في ذلك أي بأس وأي خوف، وكان يخاطب الاستعمار الفرنسي- في مقالاته وخطبه بكل الصفات التي كان يجب أن يخاطبه بها.

٣-البشير الإبراهيمي وقضايا الاستعمار في الوطن العربي

٣/١- القضية الفلسطينية:

تعتبر القضية الفلسطينية لدى رواد النهضة الجزائرية والاسلامية بصفة عامة ذات مكانة خاصة وتحتل حيزًا كبير من اهتمامهم وانشغالهم، ولقد كان الشيخ الإبراهيمي مهمومًا بهموم الأمة الإسلامية في جميع أقطارها، من طنجة إلى جاكرتا كما يعبر عنها مالك بن نبي، وكان ينظر إلى القضية الفلسطينية بوجهة دينية وقومية وسياسية، فدينيا هي أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، ومسرى النبي عليه الصلاة والسلام، أما قوميًا ففلسطين دولة عربية وقعت تحت مخالب العدو الصهيوني الظالم، وأما سياسيًا فكان الإبراهيمي يدرك الأهداف الاستراتيجية التي حدت بالإنجليز لزرع هذا الورم الخبيث في قلب الأمة الإسلامية للقضاء عليها،[١١] والمتمثل أساسًا في استكمال المشروع الاستعماري الهادف الى القضاء على الامة الاسلامية، ونجده في مقالاته المنشورة عبر جريدة البصائر الغراء، لا ينسى دائمًا اخوانه المضطهدين بنير الاستدمار الغاشم الظالم، فيذكر القضية التونسية وانها قضية الاخوة الاشقاء، ولا ينسى المغرب الشقيق، وأيضًا القضية الفلسطينية التي أطنب في الحديث عنها باعتبارها قضية اسلامية ودينية.

وفي هذا الصدد حول القضية الفلسطينية في مقاله الصادر في العدد (٤٠) من جريدة البصائر تحت عنوان: نداء وتحذير إلى الشعب الجزائري المسلم العربي، فيقول: «إن الجزائر وطنكم الصغير، وإن افريقيا الشمالية وطنكم الكبير، وإن فلسطين قطعة من جزيرة العرب التي هي وطنكم الأكبر، وان الرجل الصحيح الوطنية هو الذي لا تلهيه الأحداث عن القيام بواجبات وطنيه الأصغر والأكبر».[١٢] هكذا ربط الشيخ الإبراهيمي الشعب الجزائر بانتمائه الجغرافي والطبيعي، وانتمائه العقدي الديني، ليجعل من القضية الفلسطينية هي القضية الاولى بالنسبة للشعب الجزائر، رغم ما يعانية هذا الشعب من نير الاستعمار وجوره.

وفي السياق نفسه نجده يكتب في مجلة الاخوة الاسلامية العراقية في عددها الخامس عشر، مقالاً بعنوان "هل لمن أضاع فلسطين عيدا؟."، واعتبر وبكل ألم وحصرة انه لا عيد إلا

دراسات

باستعادة الامة الاسلامية وحدتها وعزتها وقوتها، ولقد كتب يقول: « مرت علي وأنا في الجزائر عدة أعياد من السنوات الأخيرة التي صرح فيها للعرب والمسلمين عن محضه فكنت ألقى تلك الأعياد بغير ما يلقاها به الناس، ألقاها بتجهم اضطراري وانقباض نفسي وكأن الرائي يراني وأنا معه وأراه وكأنه ليس معي، فقد كانت تظللني في العيد سحائب من الكآبة لحال قومي العرب وإخواني المسلمين وأنا كثير التفكير فيهم والاهتمام بهم والاغتمام من أجلهم، فأغبطتهم تارة لأنهم في راحة مما أنا فيه وأزدريهم حينا لأنهم لم يكونوا عونا لي على ما أنا فيه، وما أشبههم في الحالتين إلا بالغنم تساق الى الذبح وهي لاهية تخطف الكلأ من حافتي الطريق لأنها لا تدري ما يراد بها».

وكان يعتبر الحركة الصهيونية هي حركة عنصرية استعمارية، تهدف الى جمع شتات اليهود في وطن "تسميه قولا فلسطين"، وما يفرق هذه الحركة عن باقي الحركات الاستعمارية، كونها تستعمل نفوذها المالي لشراء السلاح والذمم فيقول: "تشتري به السكوت والنطق، وتشتري به الحكومات والشعوب، وتعتمد عليه على الحيلة والمكر والتباكي والتصاغر في حينه، وعلى التنمر والإرهاب في فرصته".[١٣]

هكذا كان يشعر الشيخ الإبراهيمي بكل ألم ومرارة وحصرة، حول القضية الفلسطينية فيقول في نفس المقال: «وجاءت نكبة فلسطين فكانت في قلبي جرحًا على جرح، وكانت الطامة والصاخة معًا، وكانت مشغلة لفكري بأسبابها ومآسيها وعواقبها القريبة والبعيدة... أو تداركتم تضييعكم لفلسطين بالاستعداد الصادق لاسترجاعها أو تداركتم إعراضكم عن اللاجئين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بالمساعي الجدية لإرجاعهم، أو تداركتم إهمال المسجد الأقصى الذي أصبح تحت رحمة صهيون بالحفاظ في حمايته وإعداد وسائل تلك الحماية وهيهات هيهات...».[١٤]

ولم يقف دور الشيخ البشير الإبراهيمي عند هذا الحد وفقط، وانما كانت لديه نشاطات عملية في خدمة القضية الفلسطينية، فبالرغم من الظروف القاسية التي كان يفرضها المستعمر الفرنسي على الجزائريين من أجل قطع صلتهم مع العالم العربي والاسلامي، كانت جمعية العلماء وعلى رأسها البشير الإبراهيمي تقوم بمساعي حثيثة من أجل نصرة القضية الفلسطينية، فقامت الجمعية عن طريق الشيخ الطيب العقبي باتصالات حثيثة مع رجال الجمعية والاطراف السياسية المشكلة للحركة الوطنية واتفقوا على تأسيس "الهيئة العُليا لإغاثة فلسطين" سنة ١٩٤٨م، واختير الشيخ البشير الإبراهيمي رئيسًا لها، ولقد لهذه الهيئة دورًا سياسيًا وتعبويًا في خدمة القضية الفلسطينية.[١٥] وكثيرة هي تلك المقالات والدعوات التي وجهها الشيخ البشير الإبراهيمي من أجل القضية الفلسطينية والمسألة اليهودية، وفي مقاله المعنون بـ" فلسطين واليهود" ذكر الإبراهيمي كيد هؤلاء الأعداء وظلمهم للمسلمين عبر التاريخ، وبين القضية الفلسطينية بنسقها التاريخي فكان الشيخ الإبراهيمي بحق قلمًا صادقًا مدافعًا وبكل ما أوتي من قوة في إعلاء كلمة الحق ونصرة إخوته الفلسطينيين.

٢/٣- قضايا المغرب العربي:

ولم يكن البشير الإبراهيمي غافلا عن قطره، والدول العربية الشقيقة التي تحيط بدولته، المغرب وتونس وليبيا والتي كانت كلها تئن تحت وطأة الاستعمار الأوروبي الغاشم من ايطاليا وفرنسا واسبانيا. ولقد كتب حول قضايا هاته الدول التي ينتمي اليها دينيا ولغويا وعقديا وجغرافيا ولم يكن يرى أنه يفرقه عن إخوته سوى هذا الاستعمار الظالم، فمع القضية الليبية التي تفاعل معها الجزائريون بكل عواطفهم وجوارحهم عندما قام الاستعمار الإيطالي في سنة ١٩١١م باحتلال ليبيا، فكانت هبة شعبية من أجل نصرة ليبيا عن طريق مقاطعة المنتوجات الإيطالية وأيضًا جمع التبرعات لصالح الليبيين، وأيضًا دور النخبة الجزائرية في هذا الأمر عن طريق الكتابات الصحفية والخطابات والمراسلات، فنجد على سبيل المثال عمر بن قدور الجزائري أحد أبرز رواد الصحافة الذين دافعوا بقلمهم من أجل القضية الليبية قبل الحرب العالمية الأولى، فنجد الشيخ الإبراهيمي من أبرز أولئك بعد الحرب العالمية الثانية، خاصة بعد خروج الاستعمار الإيطالي وتقسيم ليبيا إلى ثلاثة مقاطعات تحت إدارة الاستعمار الخبيث بين كل من فرنسا وبريطانيا.[١٦]

فها هو يحذر إخوانه الليبيين من مكر العدو الانجليزي عندما أراد أن يعقد معاهدة معهم، فقال محذرًا «... فكان أول الواجبات عن مليككم وحكومتكم أن يحافظوا على هذا الاستقلال، وأن يقدروا الأثمان التي اشتري بها...، وأن يرعوا حرمة ما أريق على جوانبه، من دموع ودماء، وأن يديجوه على الذلل السماح من الطرائف، وأن يجنبوه وهو في خطواته الاولى مزالق المعاهدات مع من لا عهد له وميثاق، وأن يربطوا مستقبله بالشرق لا بالغرب، وبالقريب لا بالغريب».[١٧] كما أعاب الشيخ الإبراهيمي على الليبيين وعلى كل الشعوب المستعمرة استعمال مصطلح "المطالبة بالاستقلال"، لأن الاستقلال في نظره يؤخذ ولا يعطى، وأنه "جنة لا يعبر اليها إلا على جسر من الضحايا"، ففي مقال تحت عنوان "ليبيا ماذا يراد بها"، أكد الإبراهيمي كلمة طلب الاستقلال هي كلمة خاطئة أملاها على الشعوب المستعمرة الضعف والعجز، وهي في معناها الحقيقي "طلب الحق من غاصبه، أو طلب الملك من سالبه.[١٨]

وأما تونس، فقد كانت حاضرة في فكر الإبراهيمي ومقالاته وزياراته، فلقد كان يعتبرها قبلة الجزائريين، وكانت تونس بمثابة المقر الثاني لكل الجزائريين، وكما نعرف فإن جل العلماء والمصلحين الجزائريين درسوا في جامعها المعمور، جامع الزيتونة المبارك، لذلك كانت أواصر المحبة والاخوة دائما مرتبطة بالبلد الثاني والشقيق، ورغم ان الشيخ البشير الإبراهيمي لم يكن طالبًا زيتونيا وإلا أنه كان يعتز دومًا بأنه درس على مشايخ الزيتونة في المدينة المنورة، وكان من أبرزهم الشيخ محمد العزيز الوزير، الذي اخذ عليه شرح الموطأ، وفقه الإمام مالك، والتوضيح لابن هشام، ويقول الشيخ الإبراهيمي في هذا الصدد: "أنا لم أتخرج من الزيتونة، ولم أقرأ في الجامع حرفًا، ولكني تخرجت بالمدينة المنورة على اضواء وكواكب الزيتونة في وقته ولا أحابي محمد

العزيـز الـوزير التونسي- رحمـه اللـه فكانـت لي بسـببه صـلة بالزيتونة مرعية المتات آمنة الانبتات".

فنجده في مقاله الصادر بجريدة البصائر في عـددها السـتون يعنـون مقـالاً بــ "حيـا اللـه تـونس"، وعـدد خصـال هـذا البلـد وفضائله على الجزائر والجزائريين، وخيوط المحبة والتواص الدائم بينهما، فقال «جمعية العلـماء، وشـعبها، ومدارسـها، ومعلموهـا، والجمعيات المتفرعة منها، و"البصائر" وأسرتها، كـل هـذا الجهـاز العلمـي الثقـافي العتيـد يتقـدم بالشـكر الخـالص، والثنـاء الجـم والتحيات الطيبات، إلى تـونس العزيـزة، مصـورة في ذلـك الطـراز الرفيع من الزيتونة والهالة المحيطة بها...، وتـونس قبلـة الجزائـر العلميـة، ومأرزهـا الـذي تـأرز إليـه في النوائـب، ومنارتهـا التـي تشرف منها على الشرق وأنواره، فـلا عجـب إذا حرصـت جمعيـة العلماء على تمتين الحبال الواصلة بين الجزائر وبينها.»[١٩]

ولقد تعززت تلك العلاقة اكـثر وتوثقـت عنـدما تـم تأسـيس معهد عبد الحميد بن باديس، الذي كـان فرعًـا زيتونيًـا، يتبـع في جميع برامجه وامتحاناته المنـاهج المقـررة في الزيتونـة، ويشرف على تلك الامتحانات ثلة من علماء الزيتونة، ورغم هذا الامـر إلا ان الإبراهيمي كان ينتقد بعض البرامج والمناهج التعليميـة التـي يعتمد عليها مشايخ ومسيري جامع الزيتونة، فلقد كان في نظـره ان الجهاز التعليمـي في الزيتونـة يحتـاج إلى الاصـلاح، فيقـول في هذا الأمر: "ان الجهاز التعليمي بجامع الزيتونة خـلاً يحتـاج إلى الاصلاح، وعللا يجب أن تـزاح، ونقـائص يجـب أن تُلغـى، وكلها بقايا من إصلاحات خير الدين، لم تعدّ تصلح لخير العلم ولا لخـير الدين".[٢٠]

هكـذا كـان الشـيخ البشـير الإبراهيمـي مشـاركًا في الحيـاة الثقافيـة والعلميـة التونسـية مـن خـلال هاتـه الآراء التـي كـان يوجهها إلى إخوانـه في جـامع الزيتونـة أو الى حتـى السياسـيين وزعماء الحركة الوطنية التونسية، فنجده على سبيل المثال يكتب بقلب صادق وقلم عطوف جراء وفاة المناضل "محمد المنصـف"، الذي وصل العرش سنة ١٩٤٢م، حيـث قـام بإصـلاحات متعـددة وأيضًا كانت له مواقف جريئة فلذلك قامت السلطات الفرنسـية بنفيه إلى الجزائر ثم إلى فرنسا حيث توفي في منفاه سـنة ١٩٤٨م، وكتب الشيخ الإبراهيمي مقالاً في جريدة البصـائر، وقـام بإرسـال برقية تعزية إلى نجله محمد الرؤوف وإخوته في تونس ومما جاء فيها " ...إنني باسمي وباسم جمعية العلماء المسلمين الجزائـريين ومن ورائها الأمة الجزائرية أعرب لكم عن الأسف العميـق لهـذه المصيبة، وأتقدم اليكم وإلى الأمة التونسية بالتعزية الخالصة".

ونجـده أيضًـا في حادثـة اغتيـال النقـابي والمناضـل "فرحـات حشاد" يدين وبشـدة الاسـتعمار الفرنسي- الـذي كـان وراء ذلـك الاغتيال، وأرسل العديد من برقيات التعزية والمواسـاة لكـل مـن الاتحاد العام التونسي- للشـغل وايضـا، بـاي تـونس، وصـالح بـن يوسف وغيرهم يعبر فيها عن المـه الشـديد جـراء هـذه الحادثـة الفظيعـة.[٢١] فلقـد كـان لتـونس في وجـدان علـماء الاصـلاح في الجزائر نظرة خاصة، وقرب خاص، لأنها المنارة التـي يسـتنير بهـا جل الجزائريين في تلـك الفـترة مـن الجهـل والظـلام الاسـتعماري الغاشم، وكانت بفضل جامعها المعمور الزيتونة القبس الذي انار على الجزائريين، من خلال العلماء الذين تخرجوا من جامعه.

وأما في القضية المغربية وعلاقته مع ملكهـا محمـد الخـامس التـي اتسـمت بـالأخوة والتعـاطف الكبـير، فلقـد كتـب برقيـات احتجاج إلى السلطة الفرنسية بسبب خلع الملك محمد الخـامس فقال في إحدى برقياته الموجهة إلى رئيس الجمهورية الفرنسية ما يلي: «أعـمال حكـومتكم الاسـتعمارية في المغـرب الأقصى- أثـارت غضـب العـالم الإسـلامي، كلـه عـلى فرنسـا وحركـت فـيهم روح الانتقام لأن كل ما تفعله حكـومتكم ضـد جلالـة السـلطان يعـدّ تعديًا شنيعًا على سلطة دينية شرعية». ولقد أرسل في هذا الشأن العديد من البرقيات الى الزعامات العربيـة والإسـلامية مـن أجـل التحرك والتعاطف مع الملك محمد الخامس، فكتب إلى السلطان يقول «حياكم الله ونصركم وثبت أقدامكم على الحق، المسلمون كلهـم معكـم بـأرواحهم وعقـولهم في مـوقفكم الشـريف أمـام الاستعمار لباغي وأساليبه المفضوحة، فأثبتوا ينصركم الله».[٢٢]

وكانت هناك علاقات تواصل كبيرة بينه وبين علـماء وزعـماء الإصلاح في بـلاد المغـرب الأقصى-، ولقـد كانـت جريـدة الشـهاب والبصائر عامة بأقلام كثيرًا من المثقفـين والمصـلحين المغاربـة مـن أمثال: علال الفـاسي، ومحمـد غـازي، ومـكي النـاصري، وغـيرهم. ولقد ذكر الشيخ إبراهيم الكتاني وهـو مغـربي، في جريـدة العلـم المغربية عن الشيخ الإبراهيمي ما يلي " كان يطرب كثيرًا لسـماع أخبار المغرب وأخبار عبد الكريم الخطابي، كما كان يطـرب كثـيرًا لسماع النشيد المغربي.."، وفي الجهة المقابلـة أيضًـا يقـول الشـيخ الإبراهيمي حول الشيخ ابراهيم الكتاني ما يلي:" للأسـتاذ البحاثـة العالم السلفي الشيخ محمد إبراهيم الكتاني أحـد علـماء المغـرب الأفذاذ المستقلين، مكانة ممتازة في نفوس جمعية العلماء وصـلة روحية قوية بهم من أيام المرحوم الأسـتاذ الـرئيس عبـد الحميـد بـن بـاديس، والكتـاني مـن المعجبـين بحركـة جمعيـة العلـماء الاصلاحية والمتتبعين لأطوارها ومن العاملين على ربـط الحركـات السلفية ببعضها البعض...".[٢٣]

ولأنه وطني وعربي وإسلامي، فقد كان حلمه الوحدة العربية والاسلامية، وأن تتحد هذه الاقطار المغاربيـة تحـت رايـة وغايـة واحدة، ونشرت جريدة صوت الجزائر الصادرة في فيفري ١٩٥٤م عنوان "الشيخ البشير الإبراهيمـي يتحـدث عـن الاتحـاد"، وذكـر الإبراهيمي دواعي الاتحاد المغـاربي، وخبـث الاسـتعمار في نفـث سموم التفرقة بين الاخوة، وأن يتفطن الجميع إلى هذا الأمر عـن طريـق التوحـد ونبـذ الخـلاف، وأن تكـون القضـية هـي واحـدة والعدو هو واحد هو الاستعمار فقال «محل أن يستقل جزء مـن المغـرب العـربي وحـده ولـتكن لنـا في هـذا عظـة ألقاهـا علينـا الاستعمار لو فقهناها وهـو أنـه يـوم احتـل الجزائـر كـان يضـمر احتلال تونس ثم مراكش، ومن يوم اِحتـل الجزائـر وهـو يسـتعد للخطوة الثانية فلما رأى الفرصة ممكنة خطا خطوتـه ونحـن في غفلة ساهون، ويوم رأى إمكان الخطوة الثالثة لم يقصر وقد بلـغ في الخطوة الثالثة من استخفافه بنـا واسـتهتاره بشـأننا ان سـخر الجزائري ليقتل أخاه المراكشي».[٢٤]

لم يكن العلامة البشير الإبراهيمي غافلاً كما يدور حوله من فتن ومن مخاطر تصيب العالم الاسلامي، بل كان واعيًا ومستوعبًا كل تلك الأزمات الخطيرة، وكان دائمًا يحاول أن يأصل تلك المسائل، بتأصيل دقيق محاولاً تشريح المرض وإعطائه الدواء اللازم للشفاء منه كلية. والقارئ في مقالاته يجده مُلمًا بكل القضايا الوطنية والعربية والإسلامية، فلم ينسى العراق ولا باكستان ولا مصر ولا عمان فكان قلمه سيالاً لكل أحوال أمته الجريحة.[٢٥]

٤-وسائل مناهضة الاستعمار في فكر البشير الإبراهيمي

لم يكن يختلف الشيخ الإبراهيمي عن غيره من زعماء الحركة الاصلاحية في قضية مواجهة الاستعمار الفرنسي، أو الحركة الاستعمارية بصفة عامة، ولقد كان هو وأعضاء جمعية العلماء المسلمين، اتخذوا نهجًا صريحًا وواضحًا في هذا المجال، وهو الاصلاح الفكري والديني والعقدي، للمجتمع الجزائري من خلال نشر التعليم ومحاربة الجمود الفكري والعقدي، وأيضًا محاربة الطرقية ورجال الطرق التي كانت تحاول تثبيط المجتمع الجزائري وابقائه في سباته العميق، وترضيته بالقدر المحتوم وهو الاستعمار الفرنسي. فكانت جمعية العلماء قد حاربت هذا الفكر منذ تأسيسها عن طريق علماءها المخلصين العاملين، وكان الشيخ الإبراهيمي من أبرز هؤلاء رفقة صديقه وخليله الشيخ عبد الحميد بن باديس، ومبارك الميلي، والعربي التبسي، وغيرهم من زعماء الاصلاح في تلك الفترة والرعيل الأول لجمعية العلماء.

وكان الشيخ يحمل النخبة والمثقفين مسؤولية تبليغ الرسالة الدينية والاسلامية لكل طبقات المجتمع، ومحاولة ايقاظ الهمم، ونشر التعليم في أوساط المجتمع فقال في احدى محاضراته التي ألقاها في أحد نوادي تلمسان في سنة ١٩٤٣ وكانت تحت عنوان "واجب المثقفين نحو الأمة" ومما جاء فيه «... أما الواجب في حد ذاته فهو في الجملة إيصال النفع والخير إلى الأمة ورفع الأمية والجهل عنها، وحثها على العمل وتنفيرها من البطالة والكسل، وتصحيح فهمها للحياة وتنظيف أفكارها وعقولها من التخريف، وتنظيم التعاون بين أفرادها وتمتين الصلة والثقة بين العامة والخاصة منها، وتعليمهم معاني الخير والرحمة والاحسان لجميع الخلق».[٢٦]

فمنذ عوة الشيخ البشير الإبراهيمي من رحلته المشرقية التي كانت فيها طالبًا ومدرسًا، ولقد نال قدرًا كبيرًا من العلم والمعرفة، واكتسب العديد من الخبرات في بلاد المشرق، من الناحية الدينية والسياسية والإصلاحية، فمنذ أن حط الرحال في بلده الجزائر سنة ١٩٢٠م، بدأ مباشرة في الدعوة إلى الإصلاح ونشر التعليم في مدينة سطيف، ولقد دعا الشيخ الإبراهيمي إلى تأسيس مسجد حر من أجل التعليم فيه ونشر الفكر الاصلاحي، وفي سنة ١٩٢٤ زاره الشيخ عبد الحميس بن باديس، وكانت هذه اللقاءات البداية الرسمية لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. وفي نادي الترقي الذي أسسه مجموعة من العلماء والاعيان في الجزائر العاصمة، شهد ميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ٥ مايو ١٩٣١م، التي ضمت صفوة العلماء والمصلحين الجزائريين في تلك الفترة: عبد الحميد بن باديس، البشير الإبراهيمي، العربي التبسي، مبارك الميلي، الامين العمودي، احمد توفيق المدني، إبراهيم بيوض. والتي كان من أبرز أهدافها:

- محاربة الخرافات والبدع التي شوهت الإسلام، وبعث نهضة دينية فكرية.
- محاربة الآفات الاجتماعية: كالخمر والميسر والبطالة والجهل وكل ما يحرمه الدين وينكره العقل.
- المحافظة على الشخصية الجزائرية التي أصبحت مهددة من الاستعمار وعملائه من دعاة الإدماج والفرنسة والتجنيس.
- إنشاء المدارس الحرة في جميع جهات القطر لتعليم النشء اللغة العربية وعلوم الدين والتاريخ.
- تأسيس النوادي الثقافية لتنظيم الشباب وتربيتهم تربية دينية ووطنية وتأطيرهم في منظمات ثقافية وكشفية وغيرها.
- إصدار الصحف وهي بمثابة مدارس متنقلة، أو دروس سيارة يستفيد منها القراء والمثقفون في كل زمان ومكان.[٢٧]

هكذا كانت رسالة وأهداف الجمعية، وكان البشير الإبراهيمي أحد رجالها العاملين في هذا المضمار، فكان معلمًا ومصلحًا وأديبًا وصحفيًا بارعًا. فكان من أهم الوسائل المعتمدة في محاربة الاستعمار التي اعتمد عليها الإبراهيمي – عندما نقول الإبراهيمي فإننا نقصد الحركة الاصلاحية بصفة عامة وهي المتمثلة في جمعية العلماء- في محاربة الاستعمار، أولها بناء الانسان الجزائري بناءً سليمًا صحيحًا، على قواعد دينية وعلمية، وهذا لا يتأتى إلا بالعلم. ونريد التركيز على هذه النقطة الهامة في فكر البشير الإبراهيمي في تلك الفترة المزرية من تاريخنا، لأننا نود أن نستفيد نحن منها في مصيرنا الحالي، وأن نأسس لحركة علمية واصلاحية راشدة، مبنية على ما تركه لنا أجدادنا في جمعية العلماء.

وبعد تأسيس الجمعية انتشر العلماء والمصلحين في المدن والقرى من أجل خدمة رسالة الجمعية وبث روح الاصلاح في كل أقطار الجزائري، وكان الشيخ البشير الإبراهيمي من نصيب مدينة تلمسان العريقة، فبعث الحركة الاصلاحية العلمية فيها من مرقدها وأسس بها مدرسة دار الحديث التي خرجت نخبة من فتيان الجزائر وفتياتها[٢٨]، وهذه المدرسة في تلمسان يرجع الفضل في فكرة تأسيسها إلى أمير البيان الشَّيخ محمَّد البشير الإبراهيمي :، وقد شارك بنفسه في تخطيطها وقام بتشييدها، حتَّى إنَّه كان يشرف على العمَّال بنفسه، وأسهم أهالي تلمسان رجالاً ونساءً بأموالهم وسواعدهم في بناء هذا الصَّرح العلميِّ من بدايته حتَّى نهايته. وقد أرجع الشَّيخ البشير الفضل إلى «جمعيَّة العلماء»، فقال معترِفًا: «الفضل في إنشاء هذه المدرسة العظيمة لا يرجع لأحد غير «جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريِّين»، فكلُّ

فضل لهذا العاجز هو قطرة من بحر فضل «جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريِّين». ولقد كان لدار الحديث التي تأسست في تلمسان دور كبير في توعية المجتمع الجزائري والتلمساني بصفة خاصة، حيث وقبل ١٠ أيام من افتتاحها أصدر البشير الإبراهيمي دعوة عامة في جريدة البصائر يوم ١٧ سبتمبر ١٩٣٧ وجاء فيها: «إن أكبر دعامة تقوم عليها النهضة الجزائرية الحديثة، هي تأسيس المدارس الحرة بمال الأمة، وقد قامت تلمسان بقسطها من هذا الواجب فشيدت مدرسة دار الحديث على طراز ليس له نظير في القطر الجزائري».[٢٩]

هكذا كان مع مدرسة الحديث، فلقد قدم لها كل جهده ووقته عندما كان مستقرًا في تلمسان، وبعث بها تلك الحركة الفكرية والعلمية والثقافية الاصلاحية، ونشطة تلمسان نشاطًا فائقًا، حيث نجد أنه في ١١ مايو سنة ١٩٥٢م، تم افتتاح أول مدرسة عربية للمرأة المسلمة والتي سميت باسم مدرسة عائشة، وكانت بتوجيه من طرف رائد النهضة في تلمسان شيخنا البشير الإبراهيمي، وهي بالقرب من مدرسة دار الحديث، فلم يغفل الدور الهام للمرأة المسلمة، التي تعتبر نواة الاسرة المسلمة والمجتمع المسلم الصالح، فكان لها المكانة المكينة لدى الحركة الاصلاحية لجمعية العلماء المسلمين من أجل تعليمها وتثقيفها. وكان في مقالاته المتعددة والمختلفة يدعوا طلبة العلم سواء في المعاهد والمدارس الخاصة بجمعية العلماء المسلمين في الجزائر، أو الطلبة الجزائريين المتواجدين عبر الاقطار العربية وفي مختلف الجامعات الاسلامية، وخاصةً البعثات العلمية إلى جامع الزيتونة فلقد كان يكتب عنهم بشكل دوري ويذكرهم بمهامهم وبمسؤوليتهم في المجتمع وبرسالتهم في هذا الميدان.

وفي رسالة وجهها الشيخ الإبراهيمي إلى طلبة البعثات العلمية في جامع الزيتونة موجها لهم وأيضًا ناصحًا وراشدًا لهم من أجل مواصلة المسيرة العلمي من أجل وطنهم الذي يحتاج إليهم وإلى علمهم فقال «حياكم الله وبياكم، وأبقاكم عوامل رفع لهذا الوطن وأحياكم، وأطال أعماركم للعربية تعلون صروحها وتنقشون في الأنفس لا في الأوراق شروحها، ولهذه الامة تضمدون جروحها وتداوون قروحها، وللمة الحنفية تحمون حماها وترمون رماها».[٣٠] وفي رسالة وجهها الشيخ الإبراهيمي الى كل الطلبة المهاجرين في بقاع العالم العربي والاسلامي من أجل طلب العلم فقال في مطلعها «... إنكم يا أبناء مناط آمالنا، ومستودع أمانينا، نعدكم لحمل الأمانة وهي ثقيلة، ولاستحقاق الإرث، وهو ذو تبعات وذو تكاليف، وننتظر منكم ما ينتظره المدلج في الظلام من تباشير الصبح...، وأن الوطن حين يرضى بخلوه من أبنائه أنهم أخلوه إلا ليعمروه، وما قطعوه إلا ليصلوه، وما فارقوه شبانا عزلا إلا ليعودوا إليه كهولا مسلحين بقوة التفكير، تظاهرها قوة العلم، تظاهرها قوة العمل».[٣١]

وكتب في جريدة البصائر سنة ١٩٥٢، حول دار الطلبة بقسنطينة يقول: «أيتها الامة، إن خير ما يكون الإيجاف، في السنوات العجاف، فلا تتعللي بالسنين، فإنها تدول، ولا تعتذري بالأزمات فإنها تزول، وابني لنفسك ما يعود عليك نفعه ويبقى لك أجره وشكره».[٣٢] نعم هكذا كان الشيخ الإبراهيمي داعيًا للعلم وللتعليم، حريصًا على طلبته، لأنه يدرك تمام الأدراك أن أهم وسيلة لطرد هذا الاستعمار البغيض هو العلم، ولا حياة للأمة بغير العلم، وكان أيضًا يعد أجيالاً لما بعد الاستقلال لمرحلة بناء الجزائر المستقلة. أيضًا لا ننسى- الجانب الثاني الذي لعبه البشير الإبراهيمي في مناهضة الاستعمار الفرنسي- وهو الجانب الدبلوماسي والسياسي من خلال تدعيم الثورة الجزائرية بكل الوسائل الدبلوماسية والسياسية التي كان البشير الإبراهيمي فاعلاً فيها ومتصلاً بها، وهو ما نجده خلال تواجده في القاهرة، من خلال الخطب والرسائل والمبادرات السياسية التي قام بها من أجل دعم الثورة الجزائرية.

٤/١- الأسلوب السياسي والديبلوماسي من أجل مناهضة الاستعمار

مع اندلاع الثورة التحريرية لم يدخر الشيخ البشير الإبراهيمي جهدًا في مباركتها والدعوة الى المواصلة فيها، فنجد منذ اليوم الثاني من اندلاعها أصدرت جمعية العلماء في مكتبها بالقاهرة بيانا يوضح اندلاع الثورة المباركة، وبعد ذلك في يوم ١١ نوفمبر ١٩٥٤، اصدر المكتب أيضًا مقالاً مطولاً حول أحداث ومجريات المعارك التي خاضها جنود التحرير ضد المستعمر الفرنسي، وفي البيان الشهير الذي صدر في يوم ١٥ نوفمبر من نفس السنة، زكا الشيخ الإبراهيمي هذه الثورة ودعا الشعب الجزائري الى مباركتها واحتضانها، وأحقية الشعب الجزائري في نيل استقلاله المشروع.

ولم يقتصر نشاط الشيخ الإبراهيمي على هذا المجال بل كان يترجم أقواله إلى أفعال على أرض الواقع ولقد قام بتأسيس جبهة وطنية تضم العديد من الشخصيات الوطنية ذات الانتماءات الحزبية المختلفة، ومن أبرزهم نجد حسين آيت أحمد، محمد خيضر، أحمد بن بلة، احمد بيوض عن حزب البيان والشاذلي المكي واحمد مزغنة عن الحركة المصالية، وحسين لحول ومحمد يزيد عن مجموعة اللجنة المركزية،[٣٣] ولكنها تجمعت تحت مظلة واحدة من أجل الجزائر وثورتها المباركة وفقط، وكان الشيخ الإبراهيمي من المؤسسين ومن المفكرين في إنشاء هذه الجبهة بالقاهرة في مارس من سنة ١٩٥٥م، والتي سميت بجبهة تحرير الجزائر ولقد جاء في ميثاقها الموقع من طرف مؤسسيها ما يلي:

- تعمل الجبهة لتحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسي، ومن كل سيطرة اجنبية مستعملة كل الوسائل الممكنة لتحقيق اهدافها
- الجزائر جزء لا يتجزأ من المغرب العربي، والذي هو جزء من العالم العربي الكبير
- الجزائر عربية الجنس مسلمة العقيدة: فهي بالإسلام والعروبة كانت، وعلى الاسلام والعروبة تعيش، وهي في ذلك تحترم سائر الاديان، والمعتقدات، والاجناس، وتشهر بسائر النظم العنصرية للاستعمار.

وهكذا، نشط الشيخ الإبراهيمي من خلال هذه الجبهة في الخارج من أجل إسماع صوت الثورة الجزائرية في مختلف المحافل الدولية والعربية والإسلامية، وفي وكالات الأنباء والإذاعات ومختلف الصحف والمجلات وغيرها مما استطاع إليه الشيخ البشير الإبراهيمي سبيلاً من أجل الشعب الجزائري وأحقيته في نيل الاستقلال ومجابهة الاستعمار الفرنسي- البغيض. ولقد راسل الشيخ الإبراهيمي العديد من الزعامات العربية والإسلامية من أجل القضية الجزائرية، ومن أجل فضح أعمال الاستعمار الفرنسي في الجزائر، فراسل مع بداية الثورة التحريرية الزعيم المصري جمال عبد الناصر من أجل رعاية الثورة المباركة ومساندتها ماديًا ومعنويًا، كما قاما بشكر السيد أنور السادات[٣٤] وزير الدولة وسكرتير المؤتمر الإسلامي العام في تلك الفترة، على موقفه الصريح في مباركة الثورة الجزائرية وأحقية الشعب الجزائري في الحرية والاستقلال. وفي رسالة أخرى إلى الملك السعودي فيها شكر وتقدير على دعمه للقضية الجزائرية في المحافل الدولية، ودعوته إلى طرح القضية الجزائر في أشغال مجلس جامعة الدول العربية، من أجل اقرار عرضها في جمعية الأمم المتحدة من طرف المملكة العربية السعودية.[٣٥]

٥-محمد البشير الإبراهيمي واندلاع الثورة التحريرية

بعد وفاة عبد الحميد بن باديس في أبريل ١٩٤٠م، عين الشيخ البشير الإبراهيمي رئيسًا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وبقى رئيسها إلى غاية اندلاع الثورة التحريرية المباركة، ولقد كان المتحدث بلسانها، فلذلك نجد أن المواقف التي أتخذها البشير الإبراهيمي تجاه الثورة المباركة عند اندلاعها في غرة نوفمبر ١٩٥٤ كانت تمثل آراء جمعية العلماء المسلمين، وهو ما نجده في بيانه الذي نشره باسم مكتبة جمعية العلماء بالقاهرة في يوم ١٥ نوفمبر ١٩٥٤م، موقعًا البيان مع الشيخ الفضيل الورتلاني.[٣٦]

ولكن في بادئ الأمر يجب أن ندرك أن الثورة التحريرية لم تكن وليدة الصدفة، أو المجازفة، إنما كانت تحضر- وتختمر في الخفاء والسر، ومن بين العوامل التي كانت مشاركة في صناعتها هي جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والكثير من الكتاب والمؤرخين يغفلون عن هذه النقطة، فلقد كانت الجمعية بفعل مدارسها المنتشرة في القطر الجزائري، تقوم بعملية صحوة الضمير، وأيضًا ايقاظ الشعب الجزائري من سباته العميق، ومحاربة الجمود الفكري والعقدي، والعمل على إصلاح المجتمع الجزائري، لكي يعرف حقه في طلب الحرية والعيش الكريم، فلقد كانت كل هذه الجهود المبذولة من طرف رجال الإصلاح والعلماء المخلصين، بذور لبروز تلك التيارات التحررية التي تشكلت فيما بعد وأنتجت ثمرة هي حزب جبهة التحرير الوطني.

وعند اندلاع أول شرارة للثورة المباركة تفاجئ جميع الجزائريين سواء منهم في الداخل أو في الخارج، وحتى الزعامات السياسية والوطنية، ولذلك نجد أن الكثير منهم تردد في بادئ الأمر من إبداء رأيه حول هذه الثورة، ولكن جمعية العلماء والبشير الإبراهيمي كان من الأوائل الذين باركوا هذه الثورة وهؤلاء الشباب الذين اشعلوا الثورة ضد المستعمر الغاشم وأصدر البيان في يوم ١٥ نوفمبر في السنة نفسها مباركًا ومحتضنًا هذا العمل البطولي ففي مما جاء فيه «... هذا هو الصوت الذي يسمع الآذان الصم، وهذا هو الدواء الذي يفتح الأعين المغمضة، وهذه هي اللغة التي تنفذ معانيها الى الأذهان البليدة...، إنكم كتبتم البسملة بالدماء، في صفحة الجهاد الطويلة، العريضة، فاملأوها بآيات البطولة التي هي شعاركم في التاريخ، وهي ارث العروبة والإسلام فيكم».[٣٧]

وقبل هذا البيان الصريح الذي صدر عن جمعية العلماء في القاهرة والمتمثلة في الشيخ البشير الإبراهيمي والشيخ الفضيل الورتلاني، والذي دعا فيه بالمباركة لهذه الثورة الشعبية، وهذا العمل الجبار الذي قام به نخبة من الشباب المجاهد، وأكد على الشعب الجزائري ضرورة احتضان هؤلاء الشباب ومباركة ثورتهم المجيدة. ولقد كان قبل هذا البيان الذي دعا فيه الإبراهيمي بصراحة نحو احتضان الثورة، هو البيان الصادر في اليوم الثاني من اندلاع ثورة نوفمبر المجيدة، أي يوم ٢ نوفمبر ١٩٥٤م، وهو بيان صحفي بالدرجة الأولى وزعه مكتب جمعية العلماء بالقاهرة ممضي من طرف الشيخين الإبراهيمي والورتلاني، وذكرا فيه أن هناك ثورة اندلعت في الجزائر وأنها بشير خير على كل الجزائريين ضد الطغيان الفرنسي- الظالم الجائر، وبينوا أن هذا الأمر هو حتمي بسبب ما تعامل به فرنسا الجزائريين، ودعا الشعب العربي الى دعم الثورة الجزائرية وخاصة الرئيس المصري القومي جمال عبد الناصر.[٣٨]

وإن البشير الإبراهيمي لم يكن يعلم في بداية الأمر من هؤلاء الشباب وليست له معرفة شخصية بهم، لذلك لم يدعوا مباشرة الى الانضمام الى هؤلاء الشباب، وإنما بارك أعمالهم فقط. وكما يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله[٣٩] "عليه رحمة الله" في هذه النقطة «... ومن الانصاف ان نقول إن هناك فرقًا بين تبني الثورة والدعوة لها، وبين الانضمام لجبهة التحرير والالتزام بشرعيتها، والذي يدرس تطور الاحداث خلال خريف وشتاء ١٩٥٤م، يدرك أن اللجنة التي كونت جبهة التحرير وأعلنت الثورة لم تكن معروفة حتى لزعماء الحزب الذي خرجت منه، فما بالك بقادة التنظيمات الأخرى...، حقيقة أن الجبهة عينت ممثلين منها في الخارج، وكان مقر هؤلاء في بالقاهرة أيضًا، ولأن الاتصالات قد وقعت بين هؤلاء وبين الشيخ الإبراهيمي، ولكن هؤلاء الاعضاء كانوا أيضًا مجهولين لدى الشيخ الإبراهيمي، وكانوا قبل الثورة مجرد ممثلين لحزب له زعيم معروف للشيخ الإبراهيمي...، إضافة إلى ذلك فإن الصلة الوطيدة التي كانت بين بعض أعضاء مكتب المغرب العربي وبين السلطات المصرية كانت لا تساعد الشيخ الإبراهيمي، على إعلان تأييده السريع لجبهة التحرير من أول وهلة، مكتفيا بتبني الثورة باعتبارها حدثًا شعبيًا وتاريخيًا، في انتظار انجلاء الوضع عن هيكلة الثورة وقيادتها الجديدة».[٤٠]

دراسات

ولعل من أهم الأسباب الأخرى التي جعلت الشيخ البشير الإبراهيمي يتريث في مسألة الانضمام إلى هذه المجموعة وأيضًا إلى الدعوة إلى تبني هذا الحزب الجديد، هو بيان أول نوفمبر الذي أصدرته جبهة التحرير مع اندلاع الثورة المباركة، ولقد كان هذا البيان خالي من مبادئ وأهداف جمعية العلماء المسلمين، ولا يتماشى مع خطها الإصلاحي الإسلامي العربي المعروف، لهذا لم يتبنى الشيخ الإبراهيمي وهو الشخصية الأولى في جمعية العلماء المسلمين، وأيضًا الشخصية العلمية الدينية المعروفة وطنيًا وإسلاميًا، بمدافعته عن العروبة والإسلام وكل ما يخص المسلمين في الهوية واللغة وغيرها من مقومات الدين، وفي السياق نفسه يذكر الدكتور سعد الله ما يلي «...، فكيف نتوقع أن يتبنى الشيخ الإبراهيمي ذلك البيان على علاته، وهو الأديب النابغ والممثل الرمز لجمعية أخذت على عاتقها استرجاع الشخصية العربية الاسلامية الجزائرية؟، نقول هذا لكي يكون مفهوما عند من لم يفهم بعد لماذا احتضن الشيخ الإبراهيمي الثورة من أول وهلة ولم يفعل ذلك مع جبهة التحرير».[٤١]

ولكن مع مرور فترة حوالي سنة من اندلاع الثورة الجزائرية، كان البشير الإبراهيمي أحد الأطراف الفاعلة في تأسيس جبهة وطنية تحاول لملمة جميع الاطراف التي كانت تملأ الساحة السياسية والوطنية في الجزائر، من أجل توحيد الصف والكلمة، وأيضًا إيصال الصوت بصفة جماعية وليست مفردة، فتأسست في القاهرة، في سنة ١٩٥٥م، جبهة تحرير الجزائر، وشارك في تأسيسها شخصيات وطنية بارزة، منها ممثلي لجبهة التحرير الوطني، وأيضًا أعضاء مكتب المغرب العربي في القاهرة، وأيضًا ممثلي مصالي الحاج. ولقد صدر في يوم ٢١ مارس ١٩٥٥ بالقاهرة بيان يوضح تشكيل هذه اللجنة ومما جاء فيه، «من أجل ذلك اتخذنا نحن الجزائريين المسؤولين المقيمين في القاهرة، في جبهة واحدة، هي جبهة تحرير الجزائر، عاملين على مساندة الشعب الجزائري في كفاحه القومي من أجل الحرية والاستقلال».[٤٢]

وهكذا كان الشيخ الإبراهيمي صوت الثورة الجزائرية في المحافل العربية والدولية، وأيضًا صوتها في مختلف وسائل الاعلام، ولقد كان قلمه سيالاً في دعم الثورة الجزائرية وكتب البيانات والمقالات الصحفية والادبية، من أجل التعريف بها والاشادة بعظمتها. ففي يوم ١١ نوفمبر ١٩٥٤ صدر بيان عن مكتب الجمعية في القاهرة يتضمن بالتفصيل العمليات العسكرية التي قادها المجاهدون في ليلة الاول من نوفمبر، بنوع من التفصيل والتبيين والتوضيح، وهو بيان منقول من جريدة البصائر في عددها ٢٩٢ الصادر يوم ٥ نوفمبر ١٩٥٤م، ولقد وزع البيان عن وسائل الاعلام المصرية ووكالات الانباء هناك، من أجل دحض الادعاءات الفرنسية التي كانت تقول أنها مجرد أعمال تخريبية قام بها مجموعة من قطاع الطرق وغيرها، فكان هذا توضيحا أن تلك العمليات كانت بإرادة شعبية وأيضا بطريقة منظمة.

ونجده في برقية أرسلها الى الملك سعود، يوصيه فيها بدعم القضية الجزائرية ويبارك له الخطوة التي قامت بها المملكة العربية السعودية من خلال توصية مندوبها في مجلس الجامعة العربية من أجل أثارة القضية الجزائرية في مجلس الجامعة العربية لكي يقرر عرضها في مجلس الأمن في الأمم المتحدة ومما جاء فيها: «... تتبعنا هذه الأطوار باهتمام مصحوب بالاغتباط والسرور والدعاء لجلالتكم أن قرأنا أن سفيركم بواشنطن تكلم باسم جلالتكم في قضايا الجزائر الدينية والثقافية والسياسية كلاما رسميا قويًا واضحًا وجريئًا...».[٤٣]

ولقد ربط الشيخ الإبراهيمي قضية بلاده بالشرع والدين الاسلامي، واعتبر أن الثورة الجزائرية هي جهاد في سبيل الله، وأنها ضد الكفار والصليبين، لذلك نجد في بعض مقالات أنه ربط الثورة بأسماء ومصطلحات دينية ومن السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، ففي كلمة ألقاها من إذاعة صوت العرب في القاهرة[٤٤] يوم ١٥ ماي ١٩٥٥م، كان عنوانها " عبرة من ذكرى بدر"، وذكر فيها الشيخ البشير الإبراهيمي بغزوة بدر الكبرى والتضحية من أجل الدين الاسلامي، وحماية الدين والعرض، وربط بين غزو بدر وبين الحرب بين المسلمين والكفار في تلك الفترة، وبين الاستعمار البغيض والشعب البسيط الأعزل الذي يطالب بحريته واستقلاله، وفي مقاله الأخرى أيضا التي كانت تحت عنوان " نفحات من ذكرى فتح مكة"، ونجد أيضًا تدخله بالإذاعة تحت عنوان "من وحي العيد" الذي قال فيه «... بأي حال عدت يا عيد؟ أبالجد العاثر، أم بالجد السعيد؟ وهل أنت بشير لهذه الأمم التي تحتفل باستهلالك، وتبتهج باستقبالك، لما ترجوه من حسن الفال وتحقيق الحرية والاستقلال، أم أنت لها نذير بدوام الشقاء واستمرار البلاء».[٤٥]

ولقد جاد الشيخ البشير الإبراهيمي بالعشرات بالمقالات التي كانت كلها تصب في دعم الثورة الجزائرية، ومحاولة إيصال صوتها الحقيقي إلى كل الاوساط العالمية المختلفة، وكان قلمه سيالاً من اجلها، فكتب المقالات والبيانات والمنشورات، وراسل الرؤساء والملوك والزعماء والعلماء وكل من كان يتوسم فيه خيرا من أجل هذه الثورة المباركة. فمن بين عناوين المقالات التي يمكن أن نذكرها أيضًا نجد: "الجزائر المجاهدة"، " كيف تنجح الثورة في الجزائر"، "إلى الثائرين الابطال من أبناء الجزائر والمغرب"، "فرنسا وثورة الجزائر"، جهاد الجزائر وطغيان فرنسا".

هكذا عاش مناضلاً بالقلم والكلمة والجهد والمال، ولم يدخر في سبيل قضايا شعبه أي شيء، ورغم ما عاناه بعد نفيه إلى مدينة أفلو، وذلك بعد الأحداث السياسية التي شهدتها البلاد عشية الاستقلال والتقلبات المتعددة، ولعل النداء الذي كتبه في الذكرى الرابعة والعشرين لوفاة الشيخ عبد الحميس بن باديس وذلك في يوم ١٦ أبريل من سنة ١٩٦٤م، ولعلها من آخر ما كتب الشيخ، وذكر فيها الانحراف السياسي والعقدي الذي مس البلاد. ولقد قال الشيخ يومًا في إحدى مقالاته المنشورة في جريدة البصائر ما يلي: «... خطت الأقدار في صحيفتي أن أفتح عيني عليك وأنت موثقة، فهل في غيب الأقدار أن أغمض عيني فيك وأنت مطلقة؟ وكتبت الأقدار علىّ ألا أملك من أرضك شبرًا، فهل تكتب لي أن أحوز في ثراك قبرًا؟» فلقد كان شيخنا العلامة بالفعل مجاهدًا مخلصًا، وعالمًا جليلاً، ومن الشخصيات القلائل التي حافظت على هوية هذا الشعب وحافظت على مبادئها

أثناء الاحتلال وبعده، فكان رجلاً شهمًا، صبورًا، شجاعًا، لا يخاف في الله لومة لائم.

خَاتِمَةٌ

هكذا، ومن خلال هذه الدراسة تطرقنا إلى دور الشيخ البشير الإبراهيمي في محاربة ومناهضة الاستعمار الفرنسي- في الجزائر، وتبيين دوره الإصلاحي والاجتماعي والعلمي والسياسي، من أجل دحر المستعمر الغاشم بكل الطرائق والوسائل. ونستطيع أن نجمل بعض النقاط كنتيجة لهذه الدراسة كالتالي:

- لا يعدّ الشيخ البشير الإبراهيمي شخصية علمية وفقط، وإنما كان عالمًا عاملاً مجاهدًا ومناضلاً في سبيل القضية الجزائرية في كل المحافل الدولية
- لقد ناهض الشيخ الإبراهيمي كل وسائل الاستعمار التي كان ينوي من خلالها طمس معالم الشخصية الجزائرية، ومحاربة الدين واللغة.
- استعمل الشيخ البشير الإبراهيمي في جهاده ضد الاستعمار كل الوسائل التي كانت متاحة له، من صحافة ومساجد ونوادي، وجمعيات وخطابات وغيرها من الوسائل.
- لم يكن الشيخ يفرق في مقالاته بين الاستعمار مهما كان جنسه أو لونه، وانما كان يخاطب كل أنواع الاستعمار مهما كانت، فكان ضد الاستعمار الانجليزي والايطالي والفرنسي...
- كان يدعوا دائمًا إلى الوحدة والتآزر بين أقطار المغرب العربي، والى توحيد الصفوف والكلمة لمجابهة الاستعمار، وكان يدعوا إلى الدعم العربي الموحد، وكان عربيًا مسلمًا خالصًا.
- كان الشيخ الإبراهيمي دائمًا يدعوا إلى العلم وطلبة العلم، لأنه كان يرى في العلم المنقذ الوحيد لهذه الأمة التي ادخلها الاستعمار في ظلمات الجهل والامية، وادخلها الطرقيون والمشعوذون في حركة الجمود الفكري والديني والعقدي.
- لقد لعب الشيخ البشير الإبراهيمي الدور الريادي في دعم ثورة التحرير أثناء تواجده بالقاهرة وذلك من خلال تشكيل جبهة تحرير الجزائر التي ضمت مختلف الشخصيات الوطنية.

وفي الأخير؛ إنه لا يمكن أبدًا حصر- تضحيات الشيخ البشير الإبراهيمي أو جهوده ضد الاستعمار الفرنسي في أوراق معدودة، فلقد كان كل حياته مسخرة ضد الاستعمار، ومنذ أن فتح عينيه إلى أن توسد الثرى وهو يلعن فرنسا وكل مَنْ يداهن فرنسا.

الهَوامِشُ:

(١) محمد الصالح الصديق، **نماذج للاقتداء**، دار هومة، الجزائر، ٢٠١٣م، ص٤٠.
(٢) عبد الله العقيل: **العالم العلامة البشير الإبراهيمي**، موقع بن باديس.
(٣) خير الدين شترة: **الطلبة الزيتونيين بجامع الزيتونة ١٩٠٠-١٩٥٦**، طبعة خاصة، دار البصائر، ٢٠٠٩، ص٠٧.
(٤) محمد الصالح الصديق، المرجع السابق، ص٤٢.
(٥) عبد الله العقيل: المرجع السابق.
(٦) عبد الحميد بن باديس: "**افتتاحية جريدة البصائر**" في العدد الأول ليوم ٢٧ ديسمبر ١٩٣٥.
(٧) البشير الإبراهيمي: **أثار البشير الإبراهيمي**، ج٤، تق: أحمد طالب الإبراهيمي، ط١، دار الغرب الاسلامي، ١٩٩٧م، ص٣٨٠
(٨) البشير الإبراهيمي: **كلمة ألقيت بإذاعة صوت القاهرة** في سنة ١٩٥٣./ **أثار البشير الإبراهيمي**: ج ٤، ص٢٣٨.
(٩) البشير الإبراهيمي: **أثار البشير الإبراهيمي** (عيون البصائر)، ج٣، ص٣٣٤.
(١٠) البشير الإبراهيمي: **في قلب المعركة**، دار الأمة، ٢٠٠٧م، ص٦٠.
(١١) قرين مولود: **البعد القومي في فكر الشيخ البشير الإبراهيمي**، مجلة دراسات تاريخية، العدد٢، افريل ٢٠١٤، مركز البصيرة للبحوث والاستشارات، دار الخلدونية، ص٧٣.
(١٢) البشير الإبراهيمي: **أثار البشير الإبراهيمي**، ج ٢، ص ٢٠٥
(١٣) البشير الإبراهيمي: **عيون البصائر**، ص٤٨٥.
(١٤) البشير الإبراهيمي: **أثار البشير الابراهيمي**، ج٤، ص ٢١٦,٢١٧
(١٥) مولود قرين: المرجع السابق، ص٧٤.
(١٦) مولود قرين: المرجع السابق، ص٦٨.
(١٧) البشير الإبراهيمي: **أثار الشير الإبراهيمي**، ج٤، ص ٢٣٩.
(١٨) مولود قرين: المرجع السابق، ص٦٩.
(١٩) البشير الإبراهيمي: **أثار البشير الإبراهيمي**، ج٢، ص٢٧١.
(٢٠) البشير الإبراهيمي: **محمد الطاهر بن عاشور وعبد الحميد بن باديس اماما: النهضة العلمية في الشمال الأفريقي**، جريدة البصائر، ع ٤٤، ٢٦ جويلية ١٩٤٨م.
(٢١) مولود قرين: المرجع السابق، ص٦٧.
(٢٢) البشير الإبراهيمي: **أثار البشير الإبراهيمي**، ج٤، ص٢٣٦/٢٣٧
(٢٣) مولود قرين: المرجع السابق، ص٧٠.
(٢٤) البشير الإبراهيمي: **أثار البشير الإبراهيمي**، ج ٤، ص٣٠٢.
(٢٥) للاطلاع أكثر حول هذه المقالات التي تمس القضايا العربية والإسلامية، يُنظر: البشير الإبراهيمي: **أثار البشير الإبراهيمي**، ج٤، دار الغرب الاسلامي، ١٩٩٧م.
(٢٦) البشير الإبراهيمي: **أثار البشير الإبراهيمي**، ج٢، ص١٢٩.
(٢٧) سعيد بورنان: **نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في فرنسا ١٩٣٦-١٩٥٦م**، دار هومة، ص٦٣-٦٤
(٢٨) مولود عويمر: **تراث الحركة الاصلاحية الجزائرية**، دار قرطبة، الجزائر، ٢٠١١م، ج٢، ص٣٢٥.
(٢٩) البشير الإبراهيمي: **أثار البشير الإبراهيمي**، ج١، ص٣٠٥.
(٣٠) البشير الإبراهيمي: **أثار البشير الإبراهيمي**،ج٢، ص١٥٢.
(٣١) البشير الإبراهيمي: **أثار البشير الإبراهيمي** (عيون البصائر)، ج٣، ٢٠١-٢٠٢
(٣٢) البشير الإبراهيمي: **أثار البشير الإبراهيمي**، ج٢، ص٤٥٢.
(٣٣) سعيد بورنان: **الشيخ الفضيل الورتلاني**، ص١٢٣.
(٣٤) **محمد أنور محمد السادات** ٢٥ ديسمبر ١٩١٨- ٦ أكتوبر ١٩٨١)، ثالث رئيس لجمهورية مصر العربية في الفترة من ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ وحتى ٦ أكتوبر ١٩٨١.

(٣٥) البشير الإبراهيمي: **في قلب المعركة**، ص٥٧.

(٣٦) ولد الشيخ الفضيل الورتلاني يوم ٦ فيفري من سنة ١٩٠٠م، بقرية "آنو" بقمم جبال بني ورتلان ولاية سطيف، وينتمي إلى أسرة عريقة اشتهرت بالعلم والصلاح، ومنهم جده المشهور العالم والرحالة الحسين الورتلاني صاحب الرحلة المشهورة المسماة "رحلة الورتلاني"، أخذ العلم على والده واعمامه ودخل المدرسة الفرنسية، وتعلم القرآن الكريم والفقة والنحو ومبادئ العلوم على أيدي عائلته، وانتقل إلى قسنطينة حيث أصبح تلميذًا لدى الشيخ عبد الحميد بن باديس، وتعرف هناك على رواد الحركة الاصلاحية الجزائرية، ذهب لمواصلة الدراسة بجامع الزيتونة ولكنه لم يطل المقام هناك ورجع الى قسنطينة ملازمًا الشيخ ابن باديس، وكان له دور ريادي ضمن نشاط جمعية العلماء سواء في الجزائر أو في فرنسا، وكان له دور ريادي في القاهرة، توفي بتركيا يوم ١٢ مارس ١٩٥٩م، وفي الذكرى الثامنة والعشرين لوفاته سنة ١٩٨٧م، تم نقل رفاته ودفنه بمسقط راسه بمدينة بني ورتلان بسطيف، بحضور شخصيات وطنية ودولية وجمع كبير من المواطنين، يُنظر: سعيد بورنان: **الشيخ الفضيل الورتلاني العلامة الثائر**، دار هومة، ط٢، ٢٠١٤م، ص-ص ٣١-١٦٠.

(٣٧) محمد البشير الإبراهيمي: **في قلب المعركة**، دار الامة، ص٢٢.

(٣٨) **جمال عبد الناصر حسين** (١٥ يناير ١٩١٨ - ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠) هو ثاني رؤساء مصر. تولى السلطة من سنة ١٩٥٦، إلى وفاته سنة ١٩٧٠. وهو أحد قادة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، التي أطاحت بالملك فاروق) آخر حاكم من أسرة محمد علي (والتي شغل منصب نائب رئيس الوزراء في حكومتها الجديدة. وصل جمال عبد الناصر إلى الحكم عن طريق وضع محمد نجيب) الرئيس حينها) تحت الإقامة الجبرية، وذلك بعد تنامي الخلافات بين نجيب وبين مجلس قيادة الثورة، وتولى رئاسة الوزراء ثم رئاسة الجمهورية باستفتاء شعبي يوم ٢٤ يونيو ١٩٥٦.

(٣٩) **أبو القاسم سعد الله:** لُقب بشيخ المؤرخين الجزائريين من مواليد 1930م بضواحي قمار من ولاية الوادي، الجزائر، باحث ومؤرخ، حفظ القرآن الكريم، وتلقى مبادئ العلوم من لغة وفقه ودين، وهو من رجالات الفكر البارزين، ومن أعلام الإصلاح الاجتماعي والديني. له سجل علمي حافل بالإنجازات من وظائف، ومؤلفات، وترجمات، توفي يوم ١٤ ديسمبر ٢٠١٤م.

(٤٠) البشير الإبراهيمي: **أثار البشير الإبراهيمي**، ج٥، ص٧

(٤١) الشير الإبراهيمي: **أثار البشير الإبراهيمي**، ج٥، ص٨

(٤٢) البشير الإبراهيمي: **أثار البشير الإبراهيمي**، ج٥، ص٨

(٤٣) البشير الإبراهيمي: في قلب المعركة، ص٥٧.

(٤٤) **إذاعة صوت العرب:** هي إذاعة مصرية تبث من القاهرة، تم إنشائها في ٤ يوليو عام ١٩٥٣، وكانت من أول وأشهر الإذاعات المصرية التي بثت لجميع أقطار العالم العربي باللغة العربية. اشتهرت الإذاعة كوسيلة أساسية استخدمها الرئيس المصري في حينه جمال عبد الناصر لبث خطاباته حول الوحدة العربية ومناهضة الاستعمار الاجنبي للبلدان العربية.

(٤٥) البشير الإبراهيمي: **في قلب المعركة**، ص٨٧.